وهذا ما يقول فيه الحق سبحانه:

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى[1] شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

والشيء العجيب هو الذى يخالف نواميس الكون المعتادة، ولكن هناك فرقاً بين النواميس [2] وخالق النواميس، الذى هو قادر على أن يخرق النواميس.

وها هو سيدنا إبراهيم يقول فى موضع آخر:

﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر]

ولم يأت هنا بقول امرأة إبراهيم التى قالت:

﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴿٧٢﴾﴾ [هود]

وتسمية الزوج بعلاً فيها دقة شديدة؛ لأن البعل هو الذى يقوم بأمر المبعول ولا يحوجه لأحد.

كذلك الزوج يقوم بأمر زوجته فيما لا يستطيع أبوها ولا أخوها أن يقوما به، وهو الإحساس بالأنوثة والإخصاب، وهو أهم ما تطلبه المرأة.

وأيضاً سُمِّى النخل بالبعل، لأنه لا يطلب من زارعه أن يسقيه، وإنما يكتفى النخل بما يمتصه من الأرض، وما ينزل له من مطر السماء [3].

---

(١) البعل: الزوج والزوجة، فهو مصدر سمى به بلفظه فلا يؤنث، وجمع البعل: بعولة. قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. ﴿٧٢﴾﴾ [هود]. وقال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ..﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة] أى: وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى، وبعد طلقة بائنة أو طلقتين بائنتين بعقد جديد. [القاموس القويم ١/ ٧٦].

سمى زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها. والمباعلة: المباشرة. والبعال: النكاح. تبعلت المرأة: أطاعت بعلها. وتبعلت له: تزينت. وامرأة حسنة التبعل إذا كانت مطاوعة لزوجها محبة له. [لسان العرب].

(٢) النواميس: القوانين الإلهية التى يخضع لها الكون.

(٣) ذكره ابن منظور فى لسان العرب (مادة: ب ع ل): استبعل الموضع والنخل: صار بعلاً راسخ العروق فى الماء مستغنياً عن السقى وعن إجراء الماء فى نهر أو عاثور إليه. (العاثور: هو البئر)

وكذلك سُمِّى نوع من الفول «بالفول البعلى»، وهو الذى لا يحتاج إلى إرواء.

إذن: فالبعل هو الزوج الذى يقوم على أمر زوجته فلا يُحوجها إلى غيره فى أى شىء من الأشياء.

وهنا تتعجب زوجة إبراهيم عليه السلام من أمر الإنجاب؛ لأن هذا شىء عجيب يقع على غير انتظار؛ ولذلك يرد الملائكة عليها.

ويقول الحق سبحانه عن ذلك:

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

والعجب - إذن - إنما يكون من قانون بشرى، وإنما القادر الأعلى سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يخرق الناموس.. ومن خرق النواميس جاءت المعجزات لتثبت صدق البلاغ عن الله تعالى، فالمعجزات أمر خارق للعادة الكونية.

والقصة التى حدثت لإبراهيم عليه السلام وامرأته تكررت فى قصة زكريا عليه السلام، والحق سبحانه هو الذى أعطى مريم عليها السلام بشارة التذكير لزكريا عليه السلام حين سألها:

﴿ أَنَّىٰ[1] لَكِ هَٰذَا .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

فقالت مريم:

(١) أنى: اسم استفهام بمعنى: من أين. وتأتى بمعنى: كيف مثل قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة] أى: كيف شئتم بشرط اتباع الفطرة المستقيمة التى تشير إليها الآية فى قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة] وجاءت فى بعض الآيات صالحة للمعنيين مثل قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [آل عمران]. [القاموس القويم صـ ٤١ جـ ١].

﴿ ..هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

[آل عمران]

إذن: فالحساب يكون بين الخلق وبعضهم، لا بين الخالق - سبحانه - وخَلْقه.

ولذلك يأتي قول الحق عز وجل:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ..﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران]

وما دام زكريا عليه السلام قد تذكَّر بقول مريم:

﴿ .. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

فمن حقه أن يدعو:

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً ..﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فأوحى له الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾

[مريم]

أي: أن الحق سبحانه لم يرزقه الابن فقط، بل وسماه له أيضاً باسمٍ لم يسبقه إليه أحد.

وتسمية الله تعالى غير تسمية البشر، فإن كان بعض البشر قد سموا من بعد ذلك بعض أبنائهم باسم «يحيى» فقد فعلوا ذلك من باب الفأل[1] الحسن في أن يعيش الابن.

---

(١) الفأل: ضد الطيرة، والجمع: فئول وأفؤل. ومنها: التفاؤل، وهو الاستبشار بالخير. [مختار القاموس] بتصرف.

لكن الحق سبحانه حين يسمى اسماً ، فقد سماه «يحيى» ليحيا بالفعل ، ويبلغ سن الرشد ، ثم لا يأتى الموت؛ لذلك قُتل [1] يحيى وصار شهيداً ، والشهيد حيٌّ عند ربه لا يأتى إليه موتٌ أبداً [2].

وهذا عكس تسمية البشر؛ لأن الإنسان قد يسمى ابنه «سعيد» ويعيش الابن حياته فى منتهى الشقاء.

والشاعر يقول عن الإنسان الذى سمى ابنه «يحيى»:

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا فَلَمْ يَكُنْ   لِرَدِّ قَضَاءِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

وحين نرجع إلى أن مريم عليها السلام هى التى نبهت إلى قضية الرزق من الله ، نجد أن زكريا عليه السلام قد دعا ، وذكر أنه كبير السن [3] وأن زوجه عاقر.

ولا بد أن زكريا عليه السلام يعرف أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل شىء أزلاً [4] ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يطمئن زكريا عليه السلام بأنه سيرزقه الولد ويسميه ، ويأتى قول الحق سبحانه وتعالى:

---

(١) قال ابن كثير فى قصص الأنبياء (ص ٣٩٠) : «ذكروا فى قتله أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقى فى نفسها منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى . فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه فى طست إلى عندها ، فيقال إنها هلكت من فورها وساعتها».

(٢) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران].

(٣) قال زكريا : ﴿ .. رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ [مريم] وقال بعد تبشيره بيحيى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم] قال مجاهد : عتياً يعنى : نحول العظم . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١١٢) : «لم يبق فيه لقاح ولا جماع».

(٤) الأزل : القدم . أصلها «لم يزل» ، قال أبو منصور : ومنه قولهم : هذا شىء أزلى ، أى : قديم . [لسان العرب].

﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ .. (٩) ﴾ [مريم]

وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى قرَّر ، فلا رادَّ لما أراده ، ولذلك يقول سبحانه:

﴿ ..هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم]

وهكذا توالت الأحداث بعد أن نبهت مريم زكريا عليه السلام إلى قضية خَرْق النواميس التى تعرضت هى لها بعد ذلك ، حينما تمثَّل لها المَلَك بشراً ، وبشَّرها بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام .

وتساءلت مريم عن كيفية حدوث ذلك - وهى التى لم يمسسها بشر - فيذكِّرها الملك بأنها هى التى أجرى الله سبحانه وتعالى على لسانها قوله الحق فى أثناء كلامها مع زكريا عليه السلام:

﴿ .. إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وكان لا بد من طمأنتها ؛ لأن إنجابها للمسيح عيسى - عليه السلام - دون أب هى مسألة عرض ، ويجب أن تُقبل عليها وهى آمنة ، غير مرتاب فيها ولا متهمة.

والآية التى نحن بصددها هنا تتعرض لامرأة إبراهيم عليه السلام حين جاءتها البشارة بالطفل ، وكيف أوضحت لها الملائكة أنه لا عجب مما قدَّره الله تعالى وأراده ، خلافاً للناموس الغالب فى خلقه؛ لأن رحمة الله تبارك وتعالى بكل خير فيها قد وسعت أهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمة والبركات هبة الأبناء فى غير الأوان المعتاد [1] .

ولهذا قال الحق سبحانه هنا :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٨٩) : «من تلك الهبات والبركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة» . بتصرف

﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ .. (٧٣) ﴾ [هود]

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ .. إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود]

أى: أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته، وكل ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده، فلا حد لخيره وإحسانه، ولله تعالى مُطْلَقُ صفات المجد.

وكلمة «حميد» - فى اللغة - من «فَعيل» وتَرِدُ على معنيين: إما أن تكون بمعنى فاعل مثل قولنا: «الله رحيم» بمعنى أنه راحم خلقه. وإما أن تكون بمعنى مفعول؛ كقولنا: «قتيل» بمعنى «مقتول».

وكلمة «حميد» هنا تأتى بالمعنيين معاً: «حامدٌ» و«محمودٌ»، مثل قول الحق سبحانه عن نفسه أنه «الشكور»؛ لأنه سبحانه يشكر من يشكره على نعمه بطاعته. والله سبحانه «حميدٌ»؛ لأنه حامدٌ لمن يطيعه طاعة نابعة من الإيمان، والله سبحانه «محمودٌ» ممن أنعم عليهم نعمه السابغة.

والله سبحانه هو المجيد الذى يعطى قبل أن يُسأل.

ولذلك نجد عارفاً بالله تعالى قد جاءه سائل، فأخرج كيساً ووضعه فى يده، ثم رجع إلى أهله يبكى، فقالت له امرأته: وما يبكيك وقد أديت له حق سؤاله؟ قال: أنا أبكى لأنى تركته ليسأل، وكان المفروض ألا أجعله يقف موقف السائل.

والحق سبحانه وتعالى أعطانا، حتى قبل أن نعرف كيف نسأل، ومثال ذلك: هو عطاء الحق سبحانه وتعالى للجنين فى بطن أمه، والجنين لم يتعلم الكلام والسؤال.

والحق سبحانه وتعالى فى كل لقطة من لقطات القرآن يعطى فكرة اجتماعية مأخوذه من الدين ، فها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يقدم العجل الحنيذ للضيوف ، ليعلمنا أنه إذا جاء لك ضيف ، وعرضت عليه الطعام ، ولم يأكل ، فلا تَرفع الطعام من أمامه ، بل عليك أن تسأله أن يأكل ، فإن رد بعزيمة ، وقال: لقد أكلت قبل أن أحضر إليك ، فَلَكَ أن ترفع الطعام من أمامه بعد أن أكدت عليه فى تناول الطعام.

ويروى بعض العارفين [1] أن سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما قال: ألا تأكلون ؟ قالت الملائكة: لا نأكل إلا إذا دفعنا ثمن الطعام. فقال إبراهيم ، بما آتاه الله من حكمة النبوة ووحى الإلهام: ثمنه أن تُسمُّوا الله أوله ، وتحمدوه آخره [2].

وأنت إذا أقبلت على طعام وقلت فى أوله :«بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا انتهيت منه وقلت: «الحمد لله» ؛ تكون قد أديت حق الطعام مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨ ﴾ [التكاثر]

وهكذا بيَّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم عليه السلام وزوجه قد اطمأنا على أن الملائكة قد جاءت لهما بالبشرى ، وأنها لا تريد بإبراهيم أو بقومه سوءاً ، بل هى مكلفة بتعذيب قوم لوط.

---

(١) هو عمرو بن دينار الجمحى بالولاء ، أبو محمد الأثرم ، فقيه ، كان مفتى أهل مكة ، فارسى الأصل ، مولده بصنعاء ٤٦ هـ ووفاته بمكة (١٢٦ هـ) عن ٨١ عاماً. قال شعبة: ما رأيت أثبت فى الحديث منه. الأعلام للزركلى (٥/ ٧٧).

(٢) ذكر هذا الأثر السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٤٥٠) وفى آخره أن الملائكة نظرت لبعضها البعض وقالوا: «لهذا اتخذك الله خليلاً». وعزاه لابن المنذر عن عمرو بن دينار.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ[1] وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا[2] فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

والجدل هو أن تأخذ حُجَّة من مقابل ؛ وتعطيه حُجَّة ؛ لتصل إلى حق. والجدل يختلف عن المراء[3] فالمراء يعنى أنك تعرف الحقيقة وتجادل بالباطل لأنك لا تريد أن تصل إلى الحق.

وقد نهانا الحق سبحانه عن المراء ، وأمرنا بأن نجادل بشرط أن يكون الجدال بالتى هى أحسن.

وهنا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن إبراهيم بعد أن ذهب عنه الروع وجاءته البشرى بأن الله تعالى سيرزقه بغلام ، وعلم إبراهيم من الملائكة أنهم ذاهبون لتعذيب قوم لوط :

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً[4] عِندَ رَبِّكَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات]

---

(١) راعه الشيء يروعه ، روعاً : أصاب روعه ، أي : قلبه. والروع : القلب - بضم الراء. وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود] أي : ذهب عنه الخوف والفزع. [القاموس القويم].

(٢) الجدل : المنازعة فى الرأى وشدة الخصومة. قال تعالى : ﴿ .. وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف] أي : أكثر مبالغة فى الخصومة وتأييداً للباطل بغير حق. [القاموس القويم].

(٣) ماراه يماريه مماراة ومراء : ناظره وجادله. قال تعالى : ﴿ .. فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف] أي : فلا تجادل أهل الكتاب فى شأن أهل الكهف إلا جدالاً واضحاً يسيراً. وقال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم] أي : تتشكك. [القاموس القويم].

(٤) مسومة : أي : عليها خواتيم بأسماء المعذبين. قال تعالى : ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران] أي : المعلمة بعلامات ، أو المرسلة للرعى. وقال تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] ، أي : علامة إيمانهم نور فى وجوههم. [القاموس القويم].

ومجادلة سيدنا إبراهيم فى عقاب قوم لوط ، لم تكن رداً لأمر الله ، ولكن طلباً للإمهال لعلهم يؤمنون؛ ذلك أن قلب إبراهيم عليه السلام؛ قلب رحيم.

ولذلك يأتى الحق سبحانه بالعلة فى المجادلة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ[1] مُّنِيبٌ[2] ﴾ ٧٥

إذن : فالعلة في الجدال أنه حليم لا يُعجِّل بالعقوبة ، وأوَّاه ؛ أى : يتأوه من القلب ، والتأوه رقة فى القلب ، وإن كان التأوه من الأعلى فهذا يعنى الخوف من ألا يكون قد أدى حق الله تعالى ، وإن كان التأوه للأقل فهو رحمة ورأفة.

ولذلك فقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى تأجيل العذاب لقوم لوط لعلهم يؤمنون ، وتأوُّههُ هنا لله تعالى ، وعلى هؤلاء الجهلة بما ينتظرهم من عذاب أليم.

وقال الحق سبحانه فى صفات إبراهيم أنه «منيب» أى : يرجع إلى الحكم وإلى الحق فى قضاياه .

ألم يَقُلْ الحق سبحانه فى موضع آخر من كتابه العزيز :

---

(١) أواه : صيغة مبالغة ، أى : كثير التأوه ، وغلب على معنى التضرع إلى الله فى العبادة ، والندم على الذنوب. [القاموس القويم].

(٢) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه ، وتاب ، وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود] أى : إليه أتوب وأرجع ، ومنيب : اسم فاعل. وقال تعالى : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ق] أى : بقلب راجع إلى الله. وجاء جمع «منيب» فى قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الروم] أى : راجعين إلى الله تائبين إليه ، أى : كونوا تائبين وكونوا متقين. [القاموس القويم].

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ [1] وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. (١١٤) ﴾

[التوبة]

وبعد أن بحث إبراهيم عليه السلام عن الحق ، وأناب إليه ، يبين لنا الله سبحانه وتعالى مظهرية الإنابة فى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها والتى أوضحت تأوه إبراهيم لله عز وجل وتأوهه رحمة بهؤلاء الذين لم يؤمنوا ، وهم قوم لوط ، وأيضاً كانت حجة إبراهيم - عليه السلام - فى الجدال ما قاله الحق سبحانه فى سورة العنكبوت :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا .. (٣٢) ﴾ [العنكبوت]

وكان سؤال إبراهيم للملائكة : كيف تُهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو يؤمن بالله وعلى رأسهم نبى من الله هو لوط عليه السلام ، وردت عليه الملائكة :

﴿ .. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ [2] (٣٢) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) وعده شيئاً يعده وعداً وعدة : أخبره أنه سيحققه له ، أو سيعطيه إياه ، وهو فعل يتعدى لمفعولين ، وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به .
والموعدة : مصدر ميمى ، واسم زمان أو مكان . قال تعالى : ﴿ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ .. (١١٤) ﴾ [التوبة] أى : عن وعد واحد فى مرة واحدة . [القاموس القويم ٢/ ٣٤٣].

(٢) من الغابرين : أى : من الباقين المتخلفين فى القرية للهلاك . أو كانت من الماضين الذاهبين أى : من الهالكين . يقال : مضى وذهب بمعنى مات وهلك . [القاموس القويم].

وكأن إبراهيم خليل الرحمن يعلم أن وجود مؤمنين مع الكافرين فى قرية واحدة ، يبيح له الجدال عن أهل القرية جميعاً.

ويتلقى إبراهيم الرد هنا فى سورة هود فى الآية التالية:

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا[1] إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾

وقول الملائكة:

﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا .. (٧٦) ﴾ [هود]

يعنى إبلاغ إبراهيم أن مسألة تعذيب من لم يؤمن من قوم لوط أمرٌ مُنْتَهٍ ومحسوم ، فهم قد جاءوا لينفذوا ، لا ليهدِّدوا ؛ وأبلغوا إبراهيم:

﴿ إنه قد جاء أمر ربك .. (٧٦) ﴾ [هود]

وإذا ما كان الأمر قد جاء من الله ، فإبراهيم عليه السلام لأنه ﴿مُنيبٌ﴾ يعلم أن أى أمر من الله تعالى لا بد أن يُنفَّذ ، فلا بد أن يَتقبَّل - أمرَ الحق سبحانه:

﴿ .. وإنهم آتيهم عذاب غير مردود (٧٦) ﴾ [هود]

أى: لا أحد بقادر على أن يرد عذاب الله . وكما أن هناك وعداً من الله تعالى غير مكذوب[2] ، فهناك أيضاً عذاب غير مردود[3].

---

(١) أعرضْ: فعل أمر من الإعراض ، وهو الانصراف عن الشىء. وأعرض عن الشىء: ولَّى منصرفاً عنه غير راغب فيه . قال تعالى: ﴿ أعرض ونأى بجانبه .. (٨٣) ﴾ [الإسراء]. [القاموس القويم ٢/ ١٦].

(٢) جاء هذا فى حق قوم ثمود مع نبيهم صالح ، وذلك أن الله توعدهم بالمكث والتمتع فى دارهم ثلاثة أيام بعدها يأتيهم عذاب الله بسبب عقرهم الناقة . يقول سبحانه: ﴿ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (٦٥) ﴾ [هود].

(٣) غير مردود: أى: غير مصروف عنهم ولا مدفوع . [تفسير القرطبى ٤/ ٣٣٩٢].

ويُروى [1] أن إبراهيم عليه السلام في جداله قال للملائكة: إذا كان في قوم لوط خمسون قد آمنوا بالله تعالى، أتعذبونهم؟ قالوا: لا. قال: وإن كان فيهم عشرة يؤمنون بالله، أتعذبونهم؟ قالوا: لا. قال: وإن كان فيهم واحد هو لوط؟ فردَّت الملائكة:

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [العنكبوت]

وانتهى الجدال، وذهبت الملائكة إلى مهمتها التي هي إيقاع العذاب بقوم لوط.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا [2] وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ [3] ﴿٧٧﴾ ﴾

أي: أن لوطاً شعر بالسوء، وضاق بهم ذرعاً، والذرع مأخوذ من الذراع التي فيها الكف والأصابع وندفع بها الأشياء، وأي شيء تستطيع أن تمد إليه ذراعك لتدفع به، وإن لم تَطُله ذراعك؛ قلت: «ضقت به ذرعاً» أي: أن يدي لم تطله، وهو أمر فوق قوتي وطاقتي، وفوق ما آتاني الله من الآلات ومن الحيل.

وما الذي يسيء لوطاً في مجيء الملائكة؟

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦٠) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن اليمان.

(٢) يقال: ضاق بالأمر ذرعاً، وذراعاً: أي: لم يُطقه ولم يَقْوَ على احتماله واشتد عليه بسبب الضيق. قال تعالى: ﴿ .. وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود] أي: اشتد عليه الضيق بسبب وجودهم خوفاً عليهم من قومه. [القاموس القويم]، وضاق بهم ذرعاً: ضعفت طاقته عن تدبير خلاصهم. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٣) يوم عصيب: شديد شره وبلاؤه. [كلمات القرآن].

قيل: لأن الملائكة قد جاءوا على الشكل المعروف من الجمال، فحين يُقال: «فلان ملاك»، أى: أن شكله جميل[١].

ولوط - عليه السلام - يعلم أن آفة قومه هى إتيان الذكور، وامرأته تعلم هذه الآفة، لكن موقفها من ذلك غير موقف لوط، فهى ترحب بتلك الآفة.

ويُقال: إنها تنبهت لمجىء الرجال الحسان - ولم تعرف أنهم ملائكة العذاب - وصعدت إلى سطح المنزل، وصَفقت لعل القوم يتنبهون لها، فلم يلتفت لها أحد، فأشعلت ناراً فانتبه لها القوم، وأشارت لهم بما يعبر عن مجىء ضيوف يتميزون بالجمال[٢].

وهنا قال لوط عليه السلام:

﴿ .. هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود]

أى: يوم شديد المتاعب.

ويقال: «يوم عصيب» و «يوم عصبصب»[٣]، ومنه «العُصْبَة»[٤] وهم جماعة يتكاتفون على شىء، ويقوى الفرد بمجموعهم، وقد صدق ظن لوط.

وفى هذا يقول الحق سبحانه عن ذلك:

---

(١) وهذا هو ما قالته صويحبات يوسف عليه السلام، عندما أدخلته امرأة العزيز عليهن: ﴿ .. فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف].

(٢) وتلك كانت خيانتها لزوجها لوط عليه السلام، أنها كانت تدل قومها على أضياف لوط ليفعلوا معهم المنكر، وقد قال رب العزة عن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم].

(٣) قال الفراء: يوم عصيب، وعصبصب: شديد، وقيل: هو الشديد الحر. وقال أبو العلاء: يوم عصبصب بارد ذو سحاب كثير، لا يظهر فيه من السماء شىء. [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

(٤) العصبة والعصابة: جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين. قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [يوسف] قال الأخفش: والعصبة والعصابة جماعة ليس لها واحد. [لسان العرب: مادة (ع ص ب)].

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ[1] إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ[2] (٧٨) ﴾

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. (٧٨) ﴾

أى: يسرعون إليه فى تدافق، والإنسان إذا لم يكن قد مرن على الشر وله به دُربة، يكون متردداً خائفاً، أما من له دربة فهو يقبل على الشر بجرأة ونشاط.

وكلمة «يهرعون» هى من الألفاظ العجيبة فى اللغة العربية، وألفاظ اللغة تجد فيها فعلاً له فاعل، كقولنا: «يضربُ زيدٌ عمْراً» أى: أن الضارب هو «زيد» والمضروب هو «عمرو»، ونقول: «يُضْرَبُ عمرو» أى: أننا بنينا الفعل للمجهول، وسُمِّى عمرو «نائب فاعل».

أما فى الفعل «يُهْرَعُ» فلا نجد أحداً يقول: «يُهرع» إلا ويكون بعدها فاعل وليس نائب فاعل، مثلها مثل الفعل «جُنَّ» فهل هناك من يأتى لنفسه بالجنون، أم أن الجنون هو الذى جاءه؟ لا أحد يعرف سبب الجنون؛ ولذلك بُنيت الكلمة للمجهول، ولكن ما يأتى بعدها يكون فاعلاً. وهذا من إعجاز البيان القرآنى.

---

(١) الهرع: المشى فى اضطراب وسرعة، وأقبل يهرع، وأهرع - مجهولاً - فهو مهرع: يرعد من ضعف، أو خوف. والمهروع: المجنون يصرع. [مختار القاموس].

(٢) الرشيد: من أسماء الله الحسنى، ولم يوصف الله به فى القرآن. ورشد يرشد رشداً ورشاداً: أصاب وجه الصواب والخير والحق. والرشد: ضد الغى والضلال. والرشد: ضد السفه وسوء التدبير، وبلغ رشده: بلغ كمال عقله وحسن تصريفه للأمور. قال تعالى: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ .. (٥١) ﴾ [الأنبياء] أى: هديناه إلى الحق والخير والصواب. وقال تعالى -ما جاء على لسان الكفار-: ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] وقصدهم الاستهزاء بنبى الله شعيب - عليه السلام - بوصفه بأنه وحده من بينهم الحليم الرشيد، وهم يعتقدون عكس ذلك. [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف.

وكذلك نقول: «زُكِمَ فلان» فمن الذى أصابه بالزكام؟ لا نعرف سبباً ظاهراً للزكام.

إذن: فإذا جُهِلَ الفاعل فنحن نبنى الفعل للمجهول، ولكن ما يأتى بعده يكون فاعلاً.

وقوله تعالى:

﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ .. (٧٨) ﴾ [هود]

يبيِّن أنهم أقبلوا باندفاع، كأنهم يعشقون ما يذهبون إليه؛ لأن كلاً منهم له دربة على ذلك الفعل المشين، أو أن كلاً منهم ذاهب إلى ما يحب دون تَهيُّب، باندفاع من نفسه ودَفْع من غيره، مثلما تقول: «سنوزع تمويناً بالمجان»؛ هنا تجد الناس يتدافعون، كل منهم من تلقاء نفسه، وغيره يدفعه ليرتد إلى الوراء.

وقوم لوط كانوا على دُرْبة بتلك الفاحشة.

يقول الحق سبحانه عنهم:

﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ .. (٧٨) ﴾ [هود]

أى: أن هذه المسألة عندهم كانت محبوبة، ولهم دربة عليها وخفيفة على قلوبهم، ولا حياء يمنعهم عنها.

فالحياء يعنى أن بعض الناس يعمل السيئة ويخشى الآخرون أن يفعلوها، لكن إذا ما كانوا كلهم يحبون تلك السيئة، فلن يخجل أحد من الآخر [1].

---

(١) وليس أدل على حبهم الشديد لهذه الفعلة وعدم حيائهم من إتيانهم إياها أنهم كانوا يأتون بها فى ناديهم وهو مجلسهم حيث يجتمعون للحديث والتشاور، قال الحق: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ .. (٢٩) ﴾ [العنكبوت] ومما كانوا يأتونه أيضاً فى مجالسهم: الضراط، والصفير، ولعب الحمام، والسخرية من أبناء السبيل. [القاموس القويم]، والدر المنثور للسيوطى [٦/ ٤٦١].

وماذا يكون موقف لوط - عليه السلام - فى هذا اليوم العصيب؟ لقد أقبلوا عليه بسرعة ، وفى كوكبة واندفاع ، وهو يعلم نياتهم ويعلم سوابقهم ، وفكَّر لوط - عليه السلام - فى أن يصرفهم انصرافاً من جنس اندفاعهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ .. (٧٨) ﴾ [هود]

وقد قال ذلك لأن المرأة مخلوقة لذلك ، ومن الممكن أن يتزوجوا من بناته .

وكان العُرْف فى أيام لوط عليه السلام لا يمنع أن يزوِّج المؤمن ابنته لغير المؤمن؟ وقد زَوَّجَ رسولُ الله ﷺ إحدى بناته لعُتبة بن أبى لهب ، وأخرى لأبى العاص بن الربيع؟ قبل تحريم الحق سبحانه تزويج المؤمنة لغير المؤمن .

فهل كان المقصود : بناته من صُلبه أم بنات أمته ، أم بنات المؤمنين به ؟ وقد قيل: إنه لم يؤمن بالله إلا لوط وابنتاه ، فكيف يكون الزواج لابنتين من كل هذا العدد من الرجال المتدافعين؟

وقيل: إنه بحث عن السادة الأقوياء الذين بيدهم القرار ، وأراد أن يراضيهم بهذا الزواج؛ لعلهم يرجعون عن الفواحش والسيئات ، وفى هذا طهر لهم ، وبذلك يحفظون كرامته أمام ضيوفه .

يقول لوط عليه السلام:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي .. (٧٨) ﴾ [هود]

وكلمة «ضيف»[1] - كما نعلم - جاءت هنا مفردة ، ولكنها تطلق

---

(١) ضافه يضيفه ضيفاً: نزل عنده فهو ضائف ، واسم المفعول : مضيف . والضيف : مصدر يوصف به بلفظه فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، وقد يجمع على ضيوف ، وضيفان . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) ﴾ [الحجر] أى : هؤلاء ضيفى فلا تفضحونى بالتعدى عليهم ، و«ضيف» هنا بلفظ المفرد وهو لعدد من الملائكة . [القاموس القويم] .

أيضاً على الجمع ، والمثنى ، وتصلح للدلالة على المذكر وعلى المؤنث أيضاً ، فإن جاء ضيف واحد تقول: «هذا ضيفى» ، وإن جاء اثنان تقول: «هذان ضيفى» ، وإن كانت امرأة تقول : « هذه ضيفى » ، وإن كانتا امرأتين تقول: «هاتان ضيفى» ، وإن جاءت جماعة تقول: «هؤلاء ضيفى»[1] .

والحق سبحانه يقول:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) ﴾ [الذاريات]

وهناك ألفاظ أخرى كذلك فى اللغة مثل :كلمة «طفل»[2] فهى مفرد؛ ولكنها قد تطلق على الجماعة ، إلا أن كلمة «طفل» وُجِد لها جمع هو «أطفال» .

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ[3] أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ

---

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) ﴾ [الحجر] .

(٢) الطفل (بكسر الطاء) : هو الصغير من كل شىء ، والطفل من الإنسان : الولد ما دام صغيراً . ويستوى فيه المفرد وغيره ، وجاء الجمع فى قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور] أى: الأطفال ، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ..(٥) ﴾ [الحج] أى: أطفالاً . وجمع الطفل : أطفال ، وجاء فى القرآن: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ..(٥٩) ﴾ [النور] [القاموس القويم١/ ٤٠٣] بتصرف .

(٣) بعولتهن : أزواجهن .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ (١) مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور]

إذن: فكلمة «طفل» تطلق أيضاً، ويراد بها الجماعة.

وهنا يطلب لوط عليه السلام من قومه ألا يخزوه (٢) في ضيفه، والخزى فضيحة أمام النفس وأمام الناس.

والإنسان قد تهون عليه نفسه ويُقبل على العمل السيىء ما لم يره أحد، أما أن يراه الناس، ففى هذا فضح له؛ فالفضيحة تكون بين جمهرة الناس، والهوان أن يكون العمل السيىء بينه وبين نفسه.

ويتساءل لوط عليه السلام:

﴿ .. أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) ﴾ [هود]

أى: ألا يوجد بينكم رجل له عقل ومروءة وكرامة (٣)، يمنع هذه المسألة.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

---

(١) الإرب: الحاجة التى تقتضى الاحتيال لها وكذلك الأربة والمأرب. قال تعالى: ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ .. (٣١) ﴾ [النور] أى: غير ذوى الحاجة إلى النساء، أى: الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم. وقوله: ﴿ .. وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾[طه] أى: حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو غير ذلك.

(٢) أخزاه فلان: أهانه وفضحه. قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ .. (١٩٢) ﴾ [آل عمران] ومن دعاء القرآن: ﴿ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) ﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي .. (٧٨) ﴾[هود] أى: لا تهينونى ولا تفضحونى بإهانة ضيفى، وحذفت ياء المتكلم من كلمة «تخزونى» رسماً ونطقاً وتخفيفاً. [القاموس القويم ١/ ١٩٢].

(٣) ومن معانى الرشد أيضاً أن يكون شديداً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون صالحاً مصلحاً هادياً مستقيماً مرشداً حكيماً. انظر تفسير القرطبى [٣٣٩٦/٤].

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ[1] مِنْ حَقٍّ[2] وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾

هذه الآية تحمل رد المتدافعين طلباً للفحشاء من قوم لوط ؛ فقد قالوا له : أنت تعلم مقصدنا ، وليس لنا فى بناتك أية حاجة نعتبرها غاية لمجيئنا .

وكان هذا يعنى الإعراض عن قبول نصحه لهم بالتزوج من بناته بدلاً من طلب فعل الفاحشة مع ضيوف لوط ، وهم الملائكة الذين جاءوا فى هيئة رجال بلغوا مبلغ الكمال فى الجمال .

ويأتى الحق سبحانه برد لوط عليه السلام :

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي[3] إِلَىٰ رُكْنٍ[4] شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾

وساعة تقرأ كلمة «لو» فهذا هو التمنى ، أى : رجاء أن يكون له قوة يستطيع أن يدفع بها هؤلاء ، وكان لا بد من وجود شرط ، مثل قولنا : «لو أن زيداً عندك لجئت» ، لكن نجد هنا شرطاً ولا جواب ، كأن يقال : «لو أن لى بكم قوة لفعلت كذا وكذا» .

---

(١) اختلف العلماء فى المقصود بالبنات : هل هن بنات لوط فعلاً من صُلبه ؟ أم أن المقصود بهن نساء قومه ، فالنبى أب لأمته نساء ورجالاً . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٣) والقرطبى (٤/ ٣٣٩٥) والدر المنثور للسيوطى (٤/ ٤٥٧) .

(٢) قال ابن كثير : «أى : إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن [illegible] نشتهيهن» . وذكر [illegible] تفسيره (٤/ ٣٣٩٧) : «أن قوم لوط خطبوا بناته فردهم ، وكا[illegible] سنتهم أن من رُدَّ فى خطبة امرأة [illegible] تحل له أبداً» .

(٣) أوى المكان ، وأوى إليه يأوى أوياً : نزله والتجأ إليه . [illegible] تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف] أى : نزلوه والتجئوا إليه . [القاموس القويم]

(٤) ركن الشىء : جانبه الأقوى . وقوله تعالى : ﴿ .. أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود] أى : ألجأ إلى حصن قوى يحمينى ، أو إلى رجل قوى يحمينى وينصرنى عليكم كأنه ركن ممتنع حصين . [القاموس القويم ١/ ٢٧٦] .

ولذلك يقال إن الملائكة قالت له : إن ركنك لشديد[1] ؛ ولذلك قال :

﴿ .. أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) ﴾ [هود]

والشيء الشديد هو المتجمِّع تجمُّعاً يصعب فَصْلُه ، أو المختلط اختلاطاً بمزجٍ يصعب تحلُّله ؛ لأنك حين تجمع الأشياء ؛ فإما أن تجمع أشياء أجناسها منفصلة ، ولكنك تربطها ربطاً قوياً ، مثل أن تربط المصلوب على شجرة برباط قوى ، لكن كليهما - المصلوب والشجرة - منفصل عن الآخر وله ذاته ، وهناك ما يُسمَّى خلطاً ، وهناك ما يُسمَّى مزجاً ، والخلط هو أن تخلط أشياء ، وكل شيء منها متميز عن غيره بحيث تستطيع أن تفصله ، أما المزج فلا يمكن فصل الأشياء الممتزجة ببعضها .

ومثال ذلك : أنك قد تخلط فول التدميس مثلاً مع حبات من الفول السودانى ، وتستطيع أن تفصل الاثنين بعضهما عن بعض ؛ لأنك جمعتهما على استقلال . ولكن إن قُمْتَ بعصر ليمون على كوب من الماء المحلى بالسكر ؛ فهذا مزج يصعب حَلُّه .

وقد قال لوط عليه السلام ذلك لأنه لم يكن فى مَنَعةٍ من قومه ، أهل «سدوم» ويقال : إنها خمس قرى قريبة من «حمص» .

وقد تعجَّب رسول الله ﷺ من قول لوط ، فقال - فيما رواه البخارى - :

«رحم الله أخى لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد»[2] .

فَلهوْل ما عانى لوط عليه السلام من كرب المفاجأة قال ذلك ، وهو يعلم أنه لاَ يوجد سند أو ركن أشد من الحق سبحانه وتعالى .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/٤٥٩) وعزاه لابن جرير الطبرى عن وهب بن منبه . وركنه الشديد هنا هو الله سبحانه وتعالى .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٧٥ ، ٤٦٩٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠) وابن ماجه فى سننه (٤٠٢٦) من حديث أبى هريرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قالته الملائكة للوط عليه السلام:

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ[1] مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾

وهكذا علم لوط - لأول مرة - أنهم رسل من الله تعالى ، رغم أنهم حين تكلموا مع إبراهيم لم يقولوا أنهم رسل من الله ؛ ليدلنا على أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أنهم رسل من الحق سبحانه ، لكنه لم يكن يعلم سبب مجيئهم.

وهم حين أخبروا لوطاً : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ .. (٨١) ﴾ فمن باب أولى ألا يصلوا إليهم ، وتخبر الملائكة لوطاً أن يسرى بأهله ليلاً أى: اخرج بأهلك فى جزء من الليل ، وقد أوضحت الملائكة أن موعد النكال[2] بقوم لوط هو الصبح :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

---

(١) القطع والقطعة: الجزء المقطوع. قال تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ .. (٨١) ﴾ [هود] والقطع: جمع «قطعة». وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا .. (٢٧) ﴾ [يونس] قطعاً - بكسر القاف وفتح الطاء - ومظلماً: حال من الليل ، وقرىء «قطعاً» - بكسر القاف وسكون الطاء - أى: جزءاً ، وتعرب مظلماً - على هذه القراءة - نعتاً لقوله: «قطعاً» أو حالاً من الليل. [القاموس القويم ٢/ ١٢٥].

(٢) النكال: التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة. قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) ﴾ [النازعات] أى: عذبه الله عذاباً شديداً يعد عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] أى: جعلها الله - بالعذاب الشديد - عبرة لأهل زمانها ، ولمن يأتى بعدها ، وللمتقين فى كل زمان. وقال تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [المائدة] أى: عقوبة زاجرة فرضها الله تعالى ليتعظ بها الناس. [القاموس القويم].

لذلك قالوا:

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ .. (٨١) ﴾ [هود]

والمقصود أن يترك ربع الليل الأول، وربعه الآخر، وأن يسير فى نصف الليل الذى بعد ربع الليل الأول وينتهى عند ربع الليل الأخير، وقيل: إن أليق ما يكون بالقطع هو النصف.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ[1] مِنكُمْ أَحَدٌ .. (٨١) ﴾ [هود]

والالتفات: هو الانصراف عن الشىء الموجود قبالتك، ويسمى الانصراف عن المقابل. فهل المقصود هو الالتفات الحسى أم الالتفات المعنوى؟

نحن نعلم أن لوطاً سيصحب المؤمنين معه؛ من ديارهم وأموالهم، وما ألفوه من مقام ومن حياة؛ لذلك تنبههم الملائكة ألا تتجه قلوبهم إلى ما تركوه، وعليهم أن ينقذوا أنفسهم، وسيعوضهم الله سبحانه خيراً مما فاتهم.

هذا هو المقصود بعدم الالتفات المعنوى، وأيضاً مقصود به عدم الالتفات الحسى.

وتوصى الملائكة لوطاً عليه السلام ألا يصحب امرأته معه؛ لأنها خانته بموالاتها للقوم المفسدين، وإفشائها للأسرار، وعليه أن يتركها مع الذين يصيبهم العذاب.

---

(١) التفت الرجل: أمال وجهه ونظر يمنة أو يسرة، أو انحرف ورجع عن وجهته. قال تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ .. (٨١) ﴾ [هود] أى: لا يلتفت يمنة ولا يسرة، ولا إلى الخلف، فيرجع وينصرف عن السير معك. [القاموس القويم ٢/١٩٦].

ولكنها لحظة الخروج ادعت أنها مخلصة للوط ، وقالت: سأخرج حيث تخرج ، ثم نظرت إلى القوم وقالت: وا قوماه ورجعت لتمكث معهم ، ولينالها العذاب الذى نالهم فى الموعد الذى حددته الملائكة وهو الصبح :

﴿ .. إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ (١) أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

وقد تحدد الصبح لإهلاكهم ؛ لأنه وقت الدعة والهدوء فيكون العذاب أشد نكالاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٢) مَّنضُودٍ (٨٢) ﴾

والحق سبحانه يبين لنا هنا أن الأمر بالعذاب حين يصدر ، فالمأمور يستجيب قهراً ، ويقال إن قرى قوم لوط خمس: قرية «سدوم» وقرية «دادوما» وقرية «ضعوه» ، وقرية «عامورا» وقرية «قتم» .

وقوله تعالى:

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا .. (٨٢) ﴾ [هود]

أى: انقلبت انقلاباً تاماً (٣) .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) : «يحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ، لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع» .

(٢) السجيل : الطين المتحجر . قال تعالى : ﴿ .. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) ﴾ [هود] . [القاموس القويم ١/ ٣٠٤] .

(٣) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٠٠) «أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم ، لم تنكفىء لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة» .

ويقول القرآن فى موضع آخر :

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ [1] أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم]

والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمَّد ، أى: قول نسبة كلامية تخالف الواقع ، ولأن من يقول الإفك [2] إنما يقلب الحقيقة إلى غير الحقيقة زعماً ، ويقلب غير الحقيقة إلى ما يشبه الحقيقة .

كذلك المؤتفكة ، أى: القرى التى جعل عاليها سافلها فانقلبت فيها الأوضاع .

ونفذ أمر الله بأن أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، وهو طين قد تحجَّر .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى [3] ﴿ .. حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) ﴾ [الذاريات]

وكلمة «حجارة» تعطى الإحساس بالصلابة ، أما كلمة «طين» فتعطى إحساساً بالليونة ، ولكن الطين الذى نزل قد تحجر بأمر من الله تعالى ، وهو قد نزل منضوداً . . أى: يتتابع فى نظام ، وكأن كل حجر يعرف صاحبه ، لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

---

(١) المؤتفكة : القرى المنقلبة عند خسفها . قال تعالى : ﴿ وأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ .. (٧٠) ﴾ [التوبة] هى المخسوفات ، وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها ، وهى المؤتفكة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] أى: أسقطها وخسفها . [القاموس القويم] .

(٢) الإفك : الكذب ، وأفَّاك : صيغة مبالغة أى: كثير الكذب ، قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) ﴾ [الشعراء] . وقال فى سحرة فرعون : ﴿ .. فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) ﴾ [الأعراف] . أى: ما يكذبون ويدعون أنه حق ، وهذا يدل على أن السحر تخيُّل وإيهام ، وليس قلباً لحقائق الأشياء ، فالحبل حبل والثعبان ثعبان ، ولكن الساحر يوهم الناس أنه عمل شيئاً وهو لم يعمل شيئاً . [القاموس القويم] .

(٣) كان ذلك فى شأن قوم لوط أيضاً ، قال تعالى فيما قاله إبراهيم عليه السلام للملائكة المرسلين إليه : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) ﴾ [الذاريات] .

﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

وكلمة «مسوَّمة» أى: مُعلَّمة ، وكأن كل حجر قد تم توجيهه إلى صاحبه ، فهذا الحجر يذهب إلى فلان ، وذاك إلى فلان ، مثل الصواريخ الموجهة إلى البلاد ، ولكن الدقة فى هذه الحجارة أن كل حجر يعرف على من بالتحديد سوف ينزل بالعذاب ، وقد جعلها الحق سبحانه لتعذيب المكين ، أى: الإنسان ، ولا تدمر البلاد .

وهى مُرتَّبة ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ .. سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ[1] ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود]

ووردت كلمة (سجيل) أيضاً فى قول الحق سبحانه :

﴿ .. طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾ [الفيل]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود]

والظالمون هنا مقصود بهم الكافرون برسالة الحق - سبحانه وتعالى - التى تتابعت فى الموكب الرسالى وخاتمها هو محمد ﷺ .

ونحن نعلم أن القصص القرآنى قد نزل تسلية وثباتاً بيقين لرسول الله ﷺ وتذكرة بالأسوة :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]

---

(١) نضد الشىء ينضده: جعل بعضه فوق بعض ، أو بجانب بعض فى نظام ، فهو منضود ونضيد ، أى: منظم . قال تعالى: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [ق] أى: مرصوص بنظام. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة] . أما قوله تعالى: ﴿ .. مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود] أى: متتابع منتظم السقوط عليهم. [القاموس القويم].

وتحكى القصص المعارك التى قامت بين كل رسول مُؤيَّد بمعجزة من الله ، وبين المنكرين له والكافرين به ، وقد انتهت كل هذه المعارك بنصرة الرسول على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يُكلّفوا أن يقاتلوا من أجل الإيمان ، بل كان عليهم أن يعلنوا الحجة الإيمانية فقط ، وأن يبلغوا المنهج ، فإن عصى القوم ؛ فالسماء هى التى تتدخل لتأديب المخالفين.

والحق سبحانه يقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ[1] ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ[2] ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ[3] ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ[4] عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ[5] ۝١٤ ﴾ [الفجر]

(١) إرم: اسم قبيلة منها «عاد» ، وقيل: هى مدينة كبيرة لهم ، وزعم الكندى فى كتابه «فضائل مصر» أنها مدينة الإسكندرية . وقوله تعالى: ﴿ .. ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ ﴾ [الفجر] يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية . [القاموس القويم ١/ ١٨].

(٢) جابه يجوبه جوباً: قطعه . وقوله: ﴿ .. جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ ﴾ [الفجر] أى: قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم، وحذفت ياء «الوادى» فى رسم المصحف. [القاموس القويم ١/ ١٣٥].

(٣) الأوتاد: جمع وتد. والوتد: قطعة مستطيلة من الخشب أو الحديد تثبت فى الأرض ثم يشد بها حبل يمسك الدابة أو سقف الخيمة ، وشبهت الجبال بالأوتاد ؛ لأنها تحفظ توازن الأرض وتثبتها . قال تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾ [النبأ] وقال أيضاً: ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ ﴾ [الفجر] قيل: هم الجنود الذين يثبتون ملكه . وقيل: إنها أوتاد حقيقية كان يشد إليها من يريد تعذيبهم من الناس ، ولعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون ، تشبه الجبال. [القاموس القويم ٢/ ٣١٨].

(٤) السوط: الجلد الذى يضرب به ، وسُمّى سوطاً لأنه يخلط الدم باللحم . وقوله تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ ﴾ [الفجر] وعبر عن الضرب بالسوط بالفعل «صب» ليفيد دوام الألم وشموله ، كأنه صب ألم الضرب فوقهم صباً فأغرقهم فيه كما يصب الماء على الجسم فيعمه . أو السوط: الخلط ، فالعذاب مختلط متنوع ، فصبَّ عليهم من العذاب أخلاطاً متنوعة . [القاموس القويم].

(٥) المرصد: اسم مكان الرصد ؛ كالمرصاد. قال تعالى: ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ .. ۝٥ ﴾ [التوبة] . وقال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ ﴾ [النبأ] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر] والمراد: أن الحق سبحانه رقيب عليهم ويحصى جميع ذنوبهم - مهما صغرت - ليعاقبهم عليها. [القاموس القويم ١/ ٢٦٦] بتصرف.

ولكن الأمر اختلف بمجيء محمد ﷺ ، لأن دين محمد ﷺ هو الدين الذى تقوم عليه الساعة ، وقومه مأمونون على البلاغ عن الله تعالى خلافة للرسول ﷺ .

وعلى كل واحد من أمة محمد ﷺ يعلم حكماً من أحكام الله تعالى أن يبلغه ؛ لأنه قائم مقام الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا [1] لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

إذن : فكل واحد من أمته ﷺ هو امتداد لرسالة الإسلام ، وبدلاً من أن السماء كانت تتدخل لتأديب الكافرين ، جعل الله سبحانه لأمة محمد ﷺ أن يقفوا بالقوة أمام الكافرين ، لا لفرض الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يُفرض ، ولا يُكره عليه ؛ لأنك قد تُكره إنساناً فى الأمور الحسية ، لكنك لا تستطيع أن تملك قلبه ، والحق سبحانه يريد الإيمان الغيبى الذى يملك القلوب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [2] نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

إذن : فالحق سبحانه يريد قلوباً تخشع ، لا أعناقاً تخضع .

---

(١) الوسط : مصدر ، ويسمى به الشيء المتوسط ، ولأنه مصدر يوصف به المفرد وغيره ، بلفظه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] . أى : أمة فاضلة خيرة ، خير الأمم ، فالوسط خير الطرفين ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران] .

(٢) بخع نفسه بخعاً وبخوعاً : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . قال تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف] . [القاموس القويم] .

وهكذا فُوِّضَتْ أمة محمد ﷺ تفويضين: فُوِّضَتْ في نقل رسالة محمد ﷺ إلى الأجيال، وكل جيل ينقلها إلى الجيل الذى يليه.

وها هو ﷺ يقول: «نَضَّرَ الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وأداها إلى من لم يسمعها، فرُبَّ مُبلغٍ أوعى من سامع»[1].

وفُوِّضَتْ أمة محمد ﷺ فى أن تقف من الكافرين موقف تأديب، لا لتفرض الدين ولكن لتحمى حق اختيار الدين، فلم يحدث أن رُفع سيفٌ فى الإسلام ليفرض ديناً؛ بل رفع السيف ليحمى حرية اختيار الإنسان للدين.

يقول سبحانه:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]

فإذا آمن فعليه الالتزام بالإيمان، فلا يكسر حكماً من أحكام الإيمان، وهذا تصعيب للدخول فى الإسلام، فمن أين يأتى ادعاء فرض الدين على المخالفين ؟!

إذن: فقد آمن المؤمن من أمة محمد ﷺ إيمانين: الإيمان الأول هو أن يؤمن بالإسلام، والإيمان الثانى أن يبلغ الدعوة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»[2].

فهل المقصود بالعلماء هم من يعلمون العلم فقط؟ لا، بل يقصد كل من يعرف قضية من قضايا الإيمان معرفة سليمة وصحيحة، وينساح

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/ ٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) أورده السيوطى فى الدرر المنتثرة (٢٩٣) وقال: لا أصل له. قال الشوكانى فى الفوائد المجموعة (ص ٢٨٦): قال ابن حجر والزركشى: لا أصل له. وانظر كشف الخفاء للعجلونى (٢/ ٨٣).
ويؤخذ من الحديث أن نوقر من العلماء الصدق والأمانة فى البلاغ والذكاء فى العرض.

بالدعـوة فى الأرض ليـعـلّم غـيـر المـؤمـنين ويتـرك النـاس أحـراراً فى اختيـار الدين.

وكـذلك يقف المؤمنون برسـالة رسـول الله ﷺ لأية قـوة تحارب حـرية اختيار الدين.

وهكذا جاءت قصص القرآن لتثبيت فؤاده ﷺ.

ونحن نعلـم أن الحق سـبحـانه قـد بعث المصطفى ﷺ وهو فى مكة ، فصرخ بالدعوة ، لا فى آذان القبائل الواهية فى أطراف الجزيرة ، ولكن فى آذان سادة الجزيرة ، حتى لا يقال: إنه استضعف قوماً فناداهم إلى الإيمان به ، ولم يجرؤ على السادة ، وهم قـريش ، التى أخـذت السيادة بحكم إقامتها فى مكان البيت العتيق ، وكان كل العرب يحجون إلى البيت الحرام ، فإذا ما تعرضت قبيلة لقريش بسوء ، فقريش قادرة على أن تنال من أبناء تلك القبيلة حين يحجون إلى البيت الحرام.

وهكذا أخذت قريش هيبتها من وجودها حول البيت.

إذن: فالبيت هو الذى صنع السيـادة لقريش ، وهو الذى صنع السيادة للآلهة المدَّعاة من الأصنام حين يأتى كل قوم بإلههم من الحجر ؛ ليضعوه فى البيت ؛ ليكتسب الحجر قداسة من قداسة البيت.

إذن: فقد أخذت قريش السيادة من البيت الحرام ، وجاء رسول الله ﷺ فأعلن الدعوة على أسماع السادة ، وسَفَّه [1] أحلامهم ، ولم يُبَالِ بجبروتهم وسيادتهم على الجزيرة.

---

(١) سفهت الرجل: أى: رميته بالسفه، ونسبته إلى الطيش والجهل، وسفه نفسه: حملها على الجهل والطيش فكأنه جعل نفسه سفيهًا. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ..(١٣٠)﴾ [البقرة]. وسفه أحلامهم: اتهمهم بالسفه والجهل. والأحلام-هنا- هى العقول [القاموس القويم١ / ٣١٧].

لكن الحق سبحانه قد شاء ألا يكون انتصار الإسلام على يد السادة من قريش فى مكة ، بل جاء انطلاق الإسلام من المدينة ؛ لأن الله سبحانه أراد أن يُعلِّم الدنيا كلها أن العصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد.

ولكن الله تعالى قد شاء أن يكون المستضعفون من أطراف الجزيرة هم الذين نصروا الدعوة ؛ فكأن الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصبية لمحمد للحق الممثَّل فى رسالة محمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد إيماناً به وبرسالته.

وإذا كان الحق سبحانه قد نعتهم بالظالمين ، وبيَّن لهم أن المكان الذى قُلبَ عاليه أسفله ، ليس ببعيد عنهم ، فهل لهم أن يتخذوا من ذلك عبرة ؟

والظلم - كما نعلم - هو مجاوزة الحق للغير ، أى : أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير ذى حق ، فإذا كان ظلماً فى الألوهية ، فهذا هو الشرك العظيم ، وإن كان ظلماً فى إعطاء حق من حقوق الدنيا للغير ، فهو ظلم للإنسانية ، والظلم درجات بحسب الجريمة .

وقد ظلمت قريش نفسها ظلماً عظيماً ؛ لأنها أشركت بالله ؛ وجعلت له شركاء فى الألوهية ؛ وهذا أقصى أنواع الظلم.

والله سبحانه يريد أن يذكِّر هؤلاء الظالمين بأن عذاب الله حين يجىء ، أو أمر الله حين يأتى ؛ لا يمكن أن يقوم أمامه قائم يمنعه ، فتنبهوا جيداً إلى أنكم عُرْضة أن يُنزل الله تعالى بكم العذاب كما أنزل بهذه القرى ؛ وهى غير بعيدة عنكم ، فالمسافة بين المدينة والشام قد تبدو مسافة طويلة إلا أن الله تعالى قد جعلهم يمرون عليها فى كل رحلة من رحلات الصيف إلى الشام[1] .

---

(١) وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات].

إذن: فهى قرى تقع على طريق مسلوكة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه عن موقعها:

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر]

أى: بطريق تمرون عليها، لا يجرفها سيل، ولا يغير معالمها ريح.

بل هى طريق ثابتة مقيمة تمرون عليها حينما تذهبون فى رحلة الصيف إلى الشام، فكان من الواجب أن تأخذوا فى كل مرور لقطة وعبرة ؛حتى لا تقعوا فى ظلم آخر.

وقد نبهكم الله سبحانه أيضاً بمروركم على ديار قوم صالح الذين خاطبهم الحق سبحانه بقوله:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ [1] آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ [2] لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ [3] جَبَّارِينَ (١٣٠) ﴾ [الشعراء]

هكذا ترون ديار ثمود وديار عاد وديار لوط وهى خاوية، وكان من الواجب - معشر قريش - ألا تبالغوا فى الظلم، وأن تنتبهوا بالعبرة إلى مصير كل من يشرك بالله تعالى.

---

(١) الريع - بكسر الراء -: الجبل، أو ما يشبهه من المبانى المرتفعة أو المكان المرتفع. قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) ﴾ [الشعراء]. [القاموس القويم].

(٢) ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء] أى: أبنية عالية وقصوراً متينة تحسنون صنعها راجين أن تخلدوا فيها، ولستم بخالدين. [القاموس القويم].

(٣) بطش به بطشاً: أخذه بعنف وشدة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) ﴾ [البروج]. والجبر: القهر. وجبره: قهره وأكرهه على أمر. والجبار: صيغة مبالغة. والجبار من الناس: العاتى المتمرد المتسلط. وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ .. (٢٢) ﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿ .. وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم]. [القاموس القويم ١/ ٧٢] بتصرف.

ويلفتهم الحق سبحانه إلى أنهم لم يكفروا بحق الألوهية فقط ، ولكنهم - أيضاً - كفروا بشكر النعمة ، وظلموا ؛ لأن الله سبحانه هو الذى أنعم عليهم برحلة الشتاء إلى اليمن ، وبرحلة الصيف إلى الشام ، والرحلتان للتجارة التى تأتى بالزيادة لقريش ؛ لأنهم يخرجون بالأموال ويعودون بالبضائع التى يبيعونها لأهل مكة ، ولزوار بيت الله الحرام.

وقد أخذت قريش مهابتها عند كل قوم يمرون عليهم أثناء الرحلتين ، من أنهم يعيشون حول البيت الحرام ، لذلك يمتن الله سبحانه على قريش فى قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ [1] ۝٥ ﴾ [الفيل]

فالقوم الذين جاءوا ليهدموا البيت الحرام - وهو رمز السيادة - لو هدم وتحوَّل الحجيج إلى صنعاء ، لسقطت مهابة قريش ، ولكن الله تعالى حمى البيت وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعل الذين قصدوه بسوء كعصف مأكول.

لماذا صنع الله تعالى ذلك ؟

تأتى الإجابة فى السورة التالية لسورة الفيل حيث يقول الحق سبحانه فى سورة قريش :

---

(١) كيدهم : سعيهم لتخريب الكعبة . تضليل : تضييع وإبطال وخسار . طيراً أبابيل : جماعات متفرقة متتابعة . سجيل : طين متحجر محرق (آجر) . كعصف مأكول : كتبن أكلته الدواب فراثته . [كلمات القرآن - للشيخ حسنين مخلوف].

﴿ لإيلاف [1] قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

إذن: كان من الواجب حين يمرون على هذه الديار أن يأخذوا منها عبرة، وأنهم - وإن كانوا يمرون على هذه الديار بقصد التجارة وهى سر معاشهم - إذا لم يأخذوا من هؤلاء العبرة فهم يقترفون ظلماً جديداً آخر.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

أو: أن الله سبحانه وتعالى أراد أن ينبه قريشاً إلى أن الهلاك الذى نزل بهؤلاء القوم المشركين، ليس ببعيد أن يصيب قريشاً، وأن يرسل الله سبحانه على كل واحد من الكافرين به حجراً مسوَّماً يصيبه فى مكانه الذى يكون فيه.

والسطحيُّون - فى اللغة - يخطئون فيأخذون على القرآن مآخذ، لا تلتفت إليها الملكة الصحيحة فى اللغة، ويقولون: كيف يقول الله:

﴿ .. وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود]

وكلمة «ما هى» مؤنثة، وتقتضى أن يقول: «بعيدة» بدلاً من كلمة «بعيد»، أى: أن يكون القول: «وما هى من الظالمين ببعيدة» ونسوا أن المتكلم هو الله تعالى، وأنهم لم يدرسوا اللغة دراسة صحيحة؛ لأن «فعيل» إن جاءت بمعنى «مفعول»، فهنا يستوى المذكر والمؤنث.

---

(١) لإيلاف قريش: اعجبوا لإيلافهم الرحلتين وتركهم عبادة رب البيت [كلمات القرآن].